رابطة العالم الإسلامي

بحث مقدم

لمؤتمر مكة المكرمة التاسع

(التعريف بالإسلام في البلاد غير الإسلامية – الواقع والمأمول)

الحملات الصليبية والنشاط الصهيوني
ودورهما في إعاقة التعريف بالإسلام

إعداد

أ.د جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من الطبيعي أن تواجه الدعوة إلى الإسلام عقبات تقف في طريقها وتحاول منعها من النفاذ إلى الناس.

ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة.. فالدعوة إلى الإسلام دعوة إلى اعتناق عقيدة وإلى الامتثال إلى شريعة، ولقد سبق الإسلام رسائل سماوية عديدة منذ آدم وإبراهيم ثم موسى وعيسى، ولم تخل أية دعوة من العقبات، فهذه هى سنة الله في خلقه، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩].

ولا أريد الحديث عما قوبلت به دعوة هؤلاء الأنبياء، فقد وقف الجميع لهم بالمرصاد، وحاولوا أن يوقفوا أي امتداد للدعوة مع أنها جميعا دعوات لهداية البشر ولإرشادهم إلى سبيل الرشاد، وكلنا يعلم كيف واجه كفار قريش دعوة محمد ﷺ، والعذاب والويل الذي لقيه على أيديهم، وكيف اضطروه إلى الهجرة وترك البلد الذي ولد وعاش فيه "مكة"، إلا أننا نلاحظ أن أعداء دعوة الإسلام قد انقسموا إلى قسمين بعد الهجرة إلى المدينة، أهل الكتاب من اليهود الذين جاءوا ليسكنوا يثرب وكانوا يتطلعون إلى نبي جديد، فلما جاءهم ما عرفوا، كفروا به. ولقد ناصب اليهود العداء للنبي محمد ﷺ بشكل سافر أحيانا وبشكل خفي في أحيان أخرى، وكان من الطبيعي أن يرد النبي ﷺ عدوانهم وكان إخراج قبائلهم الأساسية بني قينقاع، وبني النضير وبني قريظة لخيانتهم ونقضهم العقد الاجتماعي الذي عقده معهم (الصحيفة)، معترفا لهم بحقوق المواطنة وبسائر حقوق الإنسان التي لم تكن قد عرفت بعد في أي قانون وضعي أو غير وضعي.

ونتساءل هل العداء الحالي بين الصهيونية والإسلام هو امتداد لهذا العداء الذي وجد بين اليهود والإسلام والدعوة الإسلامية؟ أم أن هذا البعد التاريخي قد انتهى، أو وجدت سياسات ومصالح هى التي أدت إلى وقوف الصهيونية في وجه الإسلام في الزمن الحالي؟ .

إننا في هذه الآونة نميز بين اليهود والصهاينة على أساس أنه لا عداء بيننا وبين اليهود؛ بل إن اليهود هم أهل عقيدة سماوية لا تعادينا بطبيعتها، بينما الصهيونية دعوة سياسية تقوم على أساس أن موطنها هو أرض فلسطين، ويجب أن تقوم لهم دولة فيها؛ بل

والأغلب عندهم أن هذه الدولة يجب أن تتخذ لها موطنا من الفرات إلى النيل، وتقوم هذه الدعوة على أساس عقدي، فهم يرون أن التوراة وعدتهم بهذه الأرض، بل يرون أن الشرائع الأخرى بما فيها شريعة الإسلام تؤكد هذه الدعوة. فالصهيونية أيا كان الوضع الخاص بها عقيدة ضد الإسلام وضد الدعوة إليه سواء أكان ذلك استنادا إلى الاعتبارات التاريخية القديمة أم استنادا إلى الدعاوى التي ارتبطت بقيام إسرائيل حديثا وزرعها من قبل الغرب لتكون شوكة في ظهر الدولة الإسلامية تمنع توحد العرب والمسلمين على كلمة سواء بأي شكل كان.

أما العدو التاريخي الآخر للإسلام فهم المشركون، كفار قريش، وفي تصوري أنهم أصبحوا أهل الدعوة والقائمين عليها بعد أن دخلوا في الإسلام وحسن إسلامهم، ويبقى عدو آخر وهم الصليبيون، وبالطبع تأخذ الصليبية اسمها من الصليب، وحملة الصليب ليسوا أعداء للإسلام أو لدعوته بحسب الأصل؛ بل إن الآية الكريمة في سورة المائدة تدل على العكس: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[المائدة: ٨٢].

ولكن العداء مع الصليبية، يرجع في تصوري إلى القرن السابع الميلادي، بعد أن ظهر أن الإسلام دعوة قوية تملأ رحاب الكون، ووصل إلى الأملاك القديمة للدولة البيزنطية، ثم فتح المسلمون الأندلس ووصلوا إلى فرنسا وانهزموا في موقعة (بوتيه) أو بلاط الشهداء.

بدأ يستيقظ كهنة الكنيسة الغربية ونادوا عدة مرات بضرورة تخليص الأراضي المقدسة (القدس) من أيدي المسلمين، وأصبح الصليب منذ القرن الحادى عشر الميلادى رمزا للعداء مع الإسلام ولمناوأة دعوته، وهدفنا في هذه الأوراق إلقاء الضوء على الصهيونية أولا، ثم الصليبية ثانيا لحملات قامت ولازالت ضد الدعوة إلى الإسلام تقف ضدها وتناوئ فكرها.

وسنتناول في قسمين: موقف الصهيونية المناوئ للدعوة الإسلامية، ثم موقف الصليبية من الدعوة.

والله الموفق إلى الخير والصواب.....

المبحث الأول

الصهيونية

وقف اليهود ضد الوحدة الإسلامية منذ أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وكان رهط منهم يعيش فيها قبل أن يصل الرسول ﷺ إليها. ولم يكن هذا العداء سافرا منذ البداية، خاصة بعد أن عقد الرسول ﷺ عقدا اجتماعيا ضم كافة أنواع من كانوا يعيشون في المدينة من مسلمين ووثنيين ويهود، وأعطى في الصحيفة حقوقا متساوية لكافة سكان المدينة، إذ قام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم باتباع هذا الأسلوب المثالي، فقد جمع أصحابه كما جمع مختلف عناصر الأمة من وثنيين ويهود، وأخذ يقرأ عليهم ما تصوره خليقا بجمع شملهم وتنظيم السلطة السياسية في مدينتهم، وهيأ لهم جميعا بعبقريته الفذة التي راحت تتلمس الأسس القويمة التي تقضى على الفرقة بينهم وتؤمنهم على أموالهم، وأعراضهم وممتلكاتهم، وتقر ما كان سائدا بينهم من أعراف صالحة في إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج، وتضيف إليهم، وتنزع من نفوسهم الحقد والغل والحسد، وتجمعهم على قلب رجل واحد في مواجهة عدوهم، وبالجملة تضع أسس التعايش السلمي القويم بين فئات ذاقت الكثير من الحروب وفقدان النظام والأمن.

وهذه بعض بنود الوثيقة:

١–وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين، ما داموا محاربين.

٢–وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته.

وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته.

٣ – وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٤ – وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٥ – وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٦ – وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٧ – وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٨ – وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه، وأهل بيته.

٩– وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

٩ب- وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته، غلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا.

١٠- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

١٠ ب- وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.

١١- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

١٢ - وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

١٣ - وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

١٤- وإذا دعوا أبي صلح يصالحونه، ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه. وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين.

١٤ب- على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

١٥- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن، بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله.

الخيانة وتقويض العقد الاجتماعي للمدينة:

ورغم هذه النصوص الواضحة في ربط عناصر مجتمع المدينة ببعضه البعض واعتبار اليهود من عناصر الأمة، إلا أنهم قد دأبوا على تفتيت مجتمع المدينة، وقاموا بالعديد من المحاولات لزرع الفتنة وهدم دعوة الإسلام وشريعته؛ بل تآمروا لقتل بنى الإسلام تارة بمحاولة وضع السم له في وليمة دعوه إليها، ويكشف حادث أشاس كيدهم في محاربة الإسلام ودعوته، إذ كانت إحدى حوادث الرد على مكائد اليهود الذين ظلوا يمارسونها لهدم التضامن الاجتماعي الكبير الذي أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة وترويها كتب السنة كالآتي: (مر أشاس بن قيس بالأوس والخزرج وقد ألف الإسلام بين قلوبهم بعد تناحرهم سبع سنين في يوم بعاث وأشاس هذا يهودي مدفوع من قومه لتفرقة المسلمين، فقال (والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فعمد أشاس إلى فتي من اليهود، فقال له جالسهم وأرو لهم ما قاله كل فريق في آخر أيام العداوة، ففعل، وتنازعوا وتواعدوا للقتال ونادوا (يا للأوس، يا للخزرج)، وأخذوا السلاح، ونزعوا للحرب فأثلج صدر أشاس وانسحب المهيج في نعومة وتركهم يتطاحنون، فجاء النبي وقال: (يا معشر المسلمين: الله الله –أبدعوة الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله

إلى الإسلام وألفكم به، وقطع عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر؟ فبكوا وتعانقوا واصطلحوا). ونزل في ذلك قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[1] [آل عمران : ٩٩].

ومن المحير محاولة الكشف عن أسرار العداء الذي تكنه الصهيونية للإسلام، ودعوته في العصر الحديث، والذي يتجلى في كثير من الأمور من أهمها:

١- تجاهل التواجد الإسلامي العربي في أرض فلسطين والقدس والمحاولات الدؤوبة للقضاء على أي وجود عربي إسلامي في هذه الأراضي والذي انتهى بالسيطرة عليها بالكامل، وتهميش السكان العرب والمسلمين فيها.

٢- محاولات تشويه صورة الإسلام في الغرب بشكل عام وتصويره بأنه دين يدعو إلى الإرهاب وكراهية الآخر، وللأسف فإن العديد ممن تخصصوا في الإسلاميات في الغرب أمثال (برنارد لويس و هتنجتون) من أصول صهيونية أو يهودية.

٣- الحملات الإعلامية المشبوهة ضد الإسلام ودعوته، وللأسف فإن الصهيونية تمتلك ناصية الإعلام الدولي وتفرض رؤاها على الشارع في الدول الغربية وفي الولايات المتحدة الأمريكية، والواقع أن القرآن يصور ما في نفوس هؤلاء القوم أبلغ تصويره يقول تعالى (وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) [آل عمران : ١١٨].

لقد كرهوا انتشار الإسلام في الماضي، وكادوا لنبيه، وها هم يكرهون هذا الانتشار في الوقت الحاضر، فكلما زاد معتنقوه، كلما ازدادوا الكيد له ولدعوته؛ لذا هناك علاقة وثيقة بين خطوط انتشار الإسلام ودعوته، وتنازل الإسلام بالعداء والكيد لدعوته من قبل الصهيونية وأدواتها القوية والمؤثرة في العالم.

ولكن التساؤل هنا: ما هو العلاج؟

العلاج ببساطة يكون في تقوية المسلمين، ونشر الإسلام باللغات الحية ومد جسور التواصل مع القوى الدولية المختلفة، وإقامة علاقات وثيقة عن طريق الجاليات الإسلامية في الغرب لتكثيف الجهد للكشف عن حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، والفرص الآن مواتية لمثل هذه الأعمال خاصة بعد دعاوى الحوار والمصالحة مع الآخر التي تقودها قوى عربية مثل الملك عبد الله بن عبد العزيز وغيرها.

---

[1] - راجع للمؤلف، نظام الدولة في الإسلام وعلاقتها بالدول الأخرى، سلسلة فكر المواجهة العدد (٢١) صـ ٩٩ الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٦

القسم الثاني: العداء الصليبي للدعوة الإسلامية

رغم العداء التاريخي بين اليهودية والمسيحية، إلا أننا نجد اتحادا حديثا بينهما في مواجهة الإسلام وانتشاره، واتخذ هذا التوحد منحنى جديد بعد ظهور الحركة الصهيونية المسيحية والتي تبشر بضرورة قيام دولة يهودية قوية (مرجليون) حتى تقوم الساعة، تلك الحركة التي يتبنى أفكارها المحافظون الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأسهم رئيس الدولة (**georg w bush**).

وأيا كان الفكر الذي وراء هذا الاتحاد، فإننا نلاحظ أن العديد ممن ادعوا مناصرة المسيح حملوا الصليب في فترات تاريخية عديدة وقادوا حركة الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر وفي القرن العشرين في محاولات يائسة للانقضاض على الإسلام ودعوته والمحاولات المستمرة لوقف انتشار الدعوة إليه، هذا الانتشار الذي يفسر في تقديري ذلك الهجوم على الإسلام وعلى الدعوة الإسلامية، وسنتناول في هذا القسم حركة الحروب الصليبية التي وجدت في القرن الحادي عشر، ثم الهجوم الذي يقوده المحافظون الجدد للقضاء على الدعوة الإسلامية.

أولا: الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر:

رغم أننا لا نهدف إلى القيام ببحث تاريخي عن الحروب الصليبية بين المسيحيين والمسلمين في القرن الحادي عشر، إلا أننا نريد فقط أن نلقى الضوء على هذه الحروب باعتبارها فترة تاريخية تظهر عداء الغرب المسيحي للإسلام والمسلمين منذ وقت مبكر لنكشف عن الدوافع الحقيقية لهذه الحروب وأسبابها ونتائجها.

فمن الواضح أن القوى المسيحية كانت تتطلع إلى تحقيق أطماع اقتصادية ومكاسب سياسية تحت ستار من الدين، وتسابقت المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية، تساندها القوى السياسية من أجل السيطرة على أراضى الخلافة الإسلامية، وجاءت الحروب الصليبية لتكون حلقة هامة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب، وتتمكن تلك القوى المسيحية من انتزاع أجزاء هامة وغالية على المسلمين والسيطرة عليها، ومن أهمها بيت المقدس الذي ظل أسيراً إلى أن قيض الله له من أنقذه وأعاده إلى السيادة الإسلامية.

ولم تقتصر هذه الصليبية الشاملة التي عرفها عالم العصور الوسطى على الانتقام من الإسلام؛ بل إنها كانت تهدف إلى البقاء والاستمرار في اقتطاع أراضى الدول الإسلامية، والاستقرار فيها مهددة قلب الوجود الإسلامي في المشرق.

إن الادعاءات الصليبية التي استترت وراء المسيحية بشهادة بعض المؤرخين الأوروبيين الذين أكدوا على أن هذه الحروب لم يكن لها ما يبررها، كما لم يكن لها سند من شرعية دينية خاصة، وأن زعمهم تخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وتحقيق الأمن للحجاج المسيحيين لم يكن سوى دعاية استخدمتها طلائع القوات الصليبية، سرعان ما اختفت أمام الأطماع الدنيوية التي تسابق من أجل تحقيقها أمراء الحملة الأولى ومن بعدها ملوك وأباطرة أوروبا، كما شهد أولئك بأن بيت المقدس لم يشهد رعاية وعناية مثلما كان وهو في أيدي المسلمين،كما أن أهل المدينة المقدسة لم يجدوا معاملة إنسانية مثلما وجدوا وهم رعايا للدولة الإسلامية[2]، وكانت هذه الحملات حاقدة على الإسلام والمسلمين، لا هدف لها إلا شئ واحد هو القضاء على الإسلام، ولا أدل على ذلك من أن القساوسة والأحبار والرهبان هم الذين أشعلوها وهم الذين تقدموا الصفوف، إلى أن جاء البطل "الناصر صلاح الدين الأيوبي" وهو الرجل الذي وحد العالم الإسلامي ونادى فيه بالجهاد المقدس (وإسلاماه) حتى وقف المسلمون صفا واحداً فهزموا النصارى في موقعة (حطين) ٥٨٣هـ وحرروا مدينة القدس وأصدروا عفواً عاماً عن أعدائهم، ثم حاول الصليبيون أن يعيدوا الكرة مرات ومرات فهب ثلاثة من أكبر ملوك أوروبا لتنظيم حملة جديدة وهم: "فيردريك برباروسا" إمبراطور المانيا و"فليب أغسطس" ملك فرنسا و"ريتشارد قلب الأسد" ملك إنجلترا.

إلا أن هذه الحملة قد فشلت أيضا أمام قوة المسلمين وعزمهم الذي لا يلين ولا ييأس أعداء الإسلام وإنما يجمعون قوتهم ويعودون مرة أخرى إلى العالم الإسلامي وهي الحملة التي قام بها"لويس التاسع" ملك فرنسا، على مصر من ناحية دمياط، وقد هزم وأسر في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولم يتركه المسلمون إلا بعد أن دفع عنه جيشه فدية مالية كبيرة.

وهكذا ظل العالم الإسلامي مائتا عام يئن تحت وطأة كابوس ثقيل من الحقد والكراهية، ويهاجمه النصارى في عقر داره، لا لشئ إلا لأنه رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨].

الحروب الصليبية في العصر الحالي:

إن الغرب النصراني كله إنما يقيم علاقاته معنا – الآن– على أساس أن الحروب الصليبية لا تزال مستمرة بيننا وبينه، وهذا ما أكده يوجين روستو مستشار الرئيس

[2] - المرجع السابق.

الأمريكي السابق (جونسون) حين قال: (يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب؛ بل هى خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، لقد كان الصراع محتدما بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصور مختلفة، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب، وخضع التراث الإسلامي للتراث المسيحي، إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هى جزء مكمل للعالم الغربي، فلسفته ونظامه، وعقيدته، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادى للإسلام)

وقد آثرنا أن ننقل هذه النصوص لكي نؤكد على خطأ هؤلاء الذين خدعونا فصوروا حروب النصارى على أنها مجرد حروب استعمارية، وقد كان هذا الخداع حتى لا تتحرك العاطفة الدينية عند المسلمين فيهبوا للدفاع عن دينهم؛ لأنه من مصلحة النصارى ألا يفهم المسلمون هذه الحقيقة وليدافع المسلمون عن وطنهم كما يشاءون، فإن الدفاع بدافع الوطنية لا يهم النصارى، وأخشى ما يخشونه أن تتحرك عند المسلمين عاطفة الدين، وعلى أي حال فلم يستسلم العالم الإسلامي للغزو النصراني الحديث؛ بل واجه المعركة بقوة، وعلى الرغم من أن المعركة لم تكن متكافئة – حيث أن الغرب النصراني كان يحارب بالأسلحة الحديثة بينما المسلمون لا يملكون غير الأجساد المتراصة يقدمونها فداء لدينهم وعقيدتهم– إلا أنهم استطاعوا إجلاء النصارى عن العالم الإسلامي، ولم يبق مستعمرا من بلاد المسلمين إلا البلدان التي احتلتها روسيا.

وفشل أسلوب القوة في القضاء على المسلمين للمرة الثالثة، وهنا وقف أعداء الإسلام يتساءلون عقب كل معركة انهزموا فيها عن سر قوة المسلمين، فأدرك الغرب أن المواجهة المادية لا فائدة منها وعليهم أن يبحثوا عن أسلوب آخر لمواجهة المسلمين، فقد وقر في قلوبهم أن مواجهة المسلمين بالقوة لا فائدة منها، فقد جربوها قبل ذلك ولم تفلح؛ بل كانوا دائما هم الخاسرون حتى في المعارك التي انتصروا فيها كانت خسارتهم أفدح من خسارة المسلمين، ومن ثم عمل الغرب على ضرب المسلمين في عقيدتهم وشريعتهم، وزعزعت دينهم في نفوسهم، حيث أن دينهم هو سر قوتهم، وبالقضاء على الدين الإسلامي يتم القضاء على المسلمين، وتساءل الغرب؟ ما وسائل ضرب المسلمين في عقيدتهم وشريعتهم واتبعوا أسلوب للقضاء على المسلمين يتمثل في الغزو الفكري للمسلمين، ولكن ما الذي يسر خطة الغرب في الغزو الفكري للمسلمين؟ إنه التخلف

العلمي والحضاري والاقتصادي والحربي والفكري والثقافي فمن التخلف العقدى نشأت كل ألوان التخلف التي أصابت العالم الإسلامي، فقد غفت الأمة الإسلامية غفوة طويلة امتدت قرنين من الزمن على الأقل إن لم يكن أكثر، تقابل من تاريخ أوروبا قرنيها الثامن عشر والتاسع عشر، قرني الصعود الأوروبي نحو السيطرة والتمكن، والتقدم العلمي والحضاري والمادي.

كانت أوروبا قد آثار قرونها الوسطى المظلمة، وأقامت –عن طريق ما استمدت من العالم الإسلامي من علم وحضارة– حركة قوية في جميع الاتجاهات، وإن كانت فقيرة كل الفقر في الناحيتين الروحية والأخلاقية.

أما العالم الإسلامي، فقد كان في نفس الفترة قد غفا غفوته الطويلة، ومتأثرا بالاستبداد السياسي والتفلت من التكاليف، فكان على المنزلق الهابط في نفس الوقت الذي تبذل أوروبا كل جهدها للصعود[3].

ففي المجال العلمي حدث تراجع كبير بالنسبة للأمة الإسلامية، بعد أن تفتحت الحركة العلمية الإسلامية وبرز تأثيرها في العالم كله، فكان العالم عالماً في العلوم الشرعية وعالما في ذات الوقت في الطب والفلك أو الفيزياء أو الكيمياء، ولا تعارض بين هذا وذاك.

ورويداً رويدا تخلفت الأمة الإسلامية وقل الإقبال على العلم، فتفشت الأمية وانتشر الجهل فيها مما سهل الغزو الفكري على المسلمين، ويقصد به الوسائل غير العسكرية التي اتخذها الغزو الصليبي لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، مما يتعلق بالعقيدة وما يتصل بها من أفكار وتقاليد وأنماط سلوك.

والدافع إلى استخدام الغزو الفكري في الحروب الصليبية المعاصرة هى الحصيلة المرة التي خرج بها الصليبيون من حروبهم الأولى مع المسلمين في القرنين الخامس والسادس الهجري (الحادي عشر والثاني عشر الميلادي)، والتي انتهت بالهزيمة الساحقة وعدم تحقيق شيء مما خرج الصليبيون من بلادهم لتحقيقه وبذلوا فيه الأموال والدماء والأنفس، فلما عادوا لغزو العالم الإسلامي مرة أخرى لم يكتفوا بالسلاح وحده، ولكنهم استصحبوا معهم تلك الوسيلة الخبيثة التي نطلق عليها اسم (الغزو الفكري).

والهدف الأخير من الغزو الفكري هو اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين وصرفهم عن التمسك بالإسلام[4]، فالمطلوب هو صرف المسلمين عن دينهم

---

[3] - راجع: واقعنا المعاصر- محمد قطب، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، دار الشروق صـ ١٦٢.

وعن قرآنهم، وليكونوا بعد ذلك ما يكونون. فإذا عجزوا عن تنصيرهم كما كانوا يشتهون ويخططون في البدء، فينبغي على الأقل أن ينتزعوا من قلوبهم ذلك الشئ المرهوب، الذي يزعجهم ويفزعهم حتى وهو كامن في قلب (الرجل المريض) كما صرح أحد الكتاب في كتاب (الغارة على العالم الإسلامي)، حيث قال: إن أوروبا كانت تفزع من الرجل المريض؛ لأن وراءه ثلاثمائة مليون من المسلمين على الاستعداد للجهاد بإشارة من أصبعه!

نعم! إنها روح الجهاد في هذا الدين وهى أشد ما يفزعهم منه، وإن كان كل شئ فيه مقيتا لديهم لا يطيقون أن يبصروه .

فوسائل الغزو الفكري كثيرة ومتنوعة نذكر منها:

التبشير:

التبشير هو الدعوة إلى النصرانية ومحاولة دفع الناس إلى الدخول فيها بشتى الوسائل المشروعة وغير المشروعة، والنصرانية دين خاص ببني إسرائيل ولا يجوز الخروج به من نطاقهم وهذا ما نص عليه عيسى عليه السلام حين قال: "ما جئت إلا لخراف بيت إسرائيل الضالة" كما قال عيسى عليه السلام لبعض اتباعه الذين أرسلهم إلى الدعوة للنصرانية "إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" إلا أن أتباعه من بعده قد خالفوا منهجه وحاولوا تنصير سائر الأمم سواء كانوا من بني إسرائيل أم من غيرهم.

وفي العصر الحديث استغلوا فكرة التبشير أسوأ استغلال حيث اتخذوه سلاحا" يخرجون به المسلم من إسلامه وحتى لو لم يدخل في النصرانية، وبذلك يتحول مفهوم التبشير من أسلوب هداية للضالين لا– كما أراد عيسى عليه السلام – إلى أسلوب تضليل وإبعاد عن منهج الله – كما أراد أتباعه.

الأهداف الحقيقية للتبشير.

لقد تمثلت الأهداف الحقيقية للتبشير في إضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، وخلق تخاذل روحي ومعنوي وشعور بالنقص عندهم، وتقطيع أواصر الوحدة والإخاء والترابط بين المسلمين، وإثارة الفتن والقلاقل في العالم الإسلامي ومعاونة الاستعمار العالمي.

---

[4] - راجع: واقعنا المعاصر- محمد قطب، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، دار الشروق صـ ١٦٢

وسوف نلقى الضوء على هذه الأهداف:

أولا القضاء على الإسلام في نفوس المسلمين:

لقد كانت المهمة الأولى التي قامت من أجلها حركة التبشير هي القضاء على مصدر القوة الأساس التي يعتمد عليها المسلمون وهي:"العقيدة الإسلامية" بما تحمله من قيم وأخلاق وفداء وتضحية، لذلك حاولوا إضعاف القيم الإسلامية عن طريق شرح تعاليم الإسلام ومبادئه شرحا يضعف في المسلم تمسكه بالإسلام ويقوي في نفسه الشك كمنهج سلوكي[5].

ثانيا: القضاء على وحدة العالم الإسلامي:

لقد أدرك الغرب النصراني أن وحدة المسلمين وتماسكهم كانت وراء انتصارهم على الغرب لذلك حاولوا عن طريق التبشير إثارة الفتن والاضطرابات داخل العالم الإسلامي ولذلك قال القس (سيمون) إن للتبشير عاملا مهما في كسر شوكة الوحدة الإسلامية، ويجب أن نحول بالتبشير مجاري التفكير في هذه الوحدة حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في المسلمين[6]؛ لذلك قام المبشرون ببث الفتن الطائفية داخل المجتمعات الإسلامية.

ثالثا: محاولة وقف انتشار الإسلام:

فلقد هال النصارى أن ينتشر الإسلام في بلادهم وأن تسقط آخر معاقلهم في الشرق، وأن يقيم الإسلام سدا منيعا في وحجه انتشار النصرانية، بل إن قوة الإسلام جعلته ينتشر حتى بين النصارى أنفسهم، لذلك حاولوا عن طريق التبشير أن يقفوا أمام المد الإسلامي، وهذا ما نبههم إليه لويس التاسع سابقا حين قال لابد من تجنيد المبشرين لمحاربة الإسلام ووقف انتشاره.

رابعا: تشويه الإسلام في نظر الشعوب الأوروبية:

لقد عاد المحاربون النصارى من الحروب الصليبية وهم يحملون صورة طيبة عن معاملات المسلمين وسماحة الإسلام ونقاء عقيدته وصفائها لذلك خاف رجال الكنيسة من ا لإسلام فقام المبشرون بمحاولة خبيثة لتشويه صورة الإسلام وسمعة المسلمين في نظر شعوب أوروبا والحيلولة دون نفاذه إليها.

[5] - راجع صـ ٢٠٩، من الفكر الإسلامي – الأستاذ أنور الجندي.
[6] - د . عمر فروخ صـ ٣٧.

ولما كانت شعوب أوروبا وحكومتها لا تعرف شيئا عن الإسلام ولا تصدر أحكامها عليه إلا من خلال الصورة التي يرسمها المبشرون لذلك قام المبشرون بما يأتي:

أ- نقلوا صورة سيئة لأوضاع المسلمين، وأحوالهم فادعوا أنهم متخلفون، وأصحاب عقائد وثنية يعشقون الملذات، ويدمنون المخدرات، ويغرمون بالنساء[7]

ب - نقلوا صورة زائفة لوضع النصارى في العالم الإسلامي، فادعوا أن النصارى مظلومون تحت ظل الحكم الإسلامي، وهكذا راح المبشرون ينشرون هذه الافتراءات على أقوامهم:

حتى يوغروا صدوهم على المسلمين.

وحتى يبرروا حملاتهم التبشيرية على العالم الإسلامي.

ولكي تدوم لهم الدولارات التي تأتي إليهم من جماعات غافلة عن الحقائق.

ولقد تسبب تشويه صورة الإسلام في نظر الشعوب الأوروبية في الجهل به وبالتالي معاداته (فالناس أعداء ما جهلوا).

خامسا: **خلق نوع من الهزيمة النفسية بين المسلمين**:

لقد أدرك المبشرون عظمة الثقافة الإسلامية التي أعطت للمسلمين العزة والقوة فأيقنوا أن أمة لها هذه الثقافة لا يمكن أن تخضع أو تذل، ومن هنا كانت مهمتهم تشويه هذه الثقافة لا يمكن أن تخضع أو أن تذل، ومن هنا كانت مهمتهم تشويه الثقافة والحط من شأنها في نفوس أصحابها حتى يخلقوا نوعا من التخاذل والهزيمة النفسية في وجان المسلمين، كيلا تتجه إرادتهم يوما ما إلى العودة إلى الإسلام، فراحوا يقارنون بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية، ليخرجوا دائما بتفضيل الآداب والعلوم الغربية على الآداب والعلوم الإسلامية، وذلك بهدف خلق التخاذل والشعور بالنقص في نفوس المسلمين، فيخضعون للمدنية الغربية وبذلك يفتحون للتبشير المسيحي طريقا إلى تحويل بعض ضعاف العقيدة عن دينهم.

سادسا: **معاونة الاستعمار الغربي والتجسس على العالم الإسلامي**:

المبشرون هم طلائع الاستعمار، وعيونه، مهمتهم توطئة ظهورنا لدولهم وشعوبهم وحكوماتهم، فإن معظم قادة الغرب النصراني كانوا أعضاء في حركات التبشير مما يدل على مدى التعاون بين التبشير والاستعمار، فقد مزج المبشرون الدين بالسياسة إلا أن

[7] راجع الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، د. سعد الدين السيد صالح، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥، دار التقوى للنشر ص٦٠،٦١.

الدين عندهم كان وسيلة فقط، أما السياسة فكانت هي الهدف الحقيقي، والكتاب المقدس عندهم لم يكن أكثر من وسيلة لاستلاب الأرض من أصحابها.

سابعا: خدمة الصهيونية العالمية:

قامت حركة التبشير بدور خطير بالتمهيد لاغتصاب فلسطين من يد المسلمين وتسليمها لليهود، حيث قام المبشرون بفتح سبع وعشرين جمعية تبشيرية في فلسطين وحدها، وقد أخذت هذه الجمعيات على عاتقها معاونة اليهود في الوصول إلى أغراضهم؛ وذلك من أهداف حركة التبشير كما بينا القضاء على وحدة العالم الإسلامي والعمل على تفرقه ومن هنا التقت الإرادات الآثمة اليهود يريدون تمزيق العالم الإسلامي وإنشاء قاعدة حربية لهم في قلبه كما أوصى بذلك لويس التاسع.

من هنا قامت مراكز التبشير في فلسطين بمحاولة إماتة الروح الإسلامية عند المسلمين عن طريق نواديها وملاعبها التي كانت تجمع فيها المسلمين في فلسطين لقبول نزول اليهود في بلادهم.

وعجبا لمن يدعون أنهم يريدون أن ينشروا دين المسيح على ربوع الدنيا ثم يسلمون مهد المسيح نفسه إلى أعدائه .

ثامنا: الربح المادي والمكسب التجاري:

لم تكن حركة التبشير خالصة لوجه الله وإنما كانت تخفي وراءها أغراضا أخرى منها– استخدام التبشير كأسلوب تجاري يدر على القائمين بها الأرباح الطائلة؛ لذلك نجد أن شركة الهند الشرقية الهولندية قد قامت بتأسيس مدرسة اللاهوت وربت فيها أثنى عشر قسيسا للخدمة في اندونيسيا وسيلان وكان كل مبشر من هؤلاء يتقاضى عمولة نقدية عن كل شخص يدخله في النصرانية.

فقد كان المبشرون يستغلون الإعفاءات الجمركية على ما يستوردنه من الخارج لحاجتهم الخاصة. فاتخذوا من هذا الأمر فرصة للربح والتجارة حيث كانوا يستوردون البضائع المختلفة ثم يبيعونها للتجار الوطنيين، وقد لاحظت تركيا هذا ألأمر فألغت الإعفاءات الجمركية للمبشرين.

وهكذا يلعب المبشرون أخبث الأدوار في تاريخ الإسلام، وهي أدوار الخيانة والعمالة والتجسس والاستغلال، وهم الذين لبسوا مسوح الرهبان ورفعوا شعارات المحبة والتسامح والمودة، بينما كانوا في واقع الأمر جنودا لحرب صليبية جديدة إلا أنهم استخدموا أسلحة من نوع آخر.

وأخيرا فإن الغاية الحقيقية للتبشير ليست هي إدخال المسلمين في النصرانية، لأنهم يعلمون أن هذا الأمر بعيد المنال، وإنما هي لإفساد المسلمين عقائديا وخلقيا، وزعزعة العقيدة في نفوسهم من أجل تفكك وحدة الأمة الإسلامية، فليس مهما أن يعتنق المسلمون النصرانية كعقيدة وإنما المهم ألا يتمسك المسلمون بعقيدتهم.

ثانيا: الاستشراق

قبل الحديث عن الاستشراق لابد من تعريف معنى الاستشراق أولا:

تعريف الاستشراق:

الاستشراق هو مصطلح أو مفهوم عام يطلق عادة على اتجاه فكري يعني بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة ودراسة حضارة الإسلام بصفة خاصة[8]

فالاستشراق حركة منظمة لها أهداف ومنهج معين وترجع نشأته إلى القرن الثامن عشر الميلادي، لكن الاستشراق كأسلوب فردي ظهر منذ القرن الأول الهجري، فقد قام الكثير بمواجهة الإسلام والوقوف أمامه بكل الوسائل، أمثال يوحنا الدمشقي الذي ظهر عام ٦٦هـ، وكتب كتابا في المجادلة بين المسلم والنصراني، وفي ظل الحروب نقل الغرب كتب المسلمين إلى بلادهم، ومع فشل الحروب الصليبية اتجهوا إلى حركة الاستشراق، وبدأ المستشرقون في عقد المؤتمرات لتوحيد جهودهم ولتقوية أواصر التعاون بينهم، فقد عقد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس عام ١٨٧٣هـ.

عوامل الاستشراق ودوافعه:

إن الاستشراق له عوامل ودوافع شتى، ويخطئ من يظن أن الاستشراق أحادي الهدف أو أن هناك دافعا واحدا يقف وراء العملية الاستشراقية، بل إن هناك دوافع عديدة وأهدافا متنوعة للفكر الاستشراقي.

وتجدر الإشارة إلى ارتباط الدوافع هنا بالأهداف التي تتولد من هذه الدوافع وتنتج عنها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن تلكم الأهداف المتنوعة للاستشراق لم تتبلور كلها في وقت واحد ولا دفعة واحدة رغم ما بينها من تشابك وتعاضد، دون إغفال لما يخضع لها المستشرق من توجهات من جانب المؤسسة التي ينتمي إليها ويعمل تحت إداراتها ولحسابها، ليس لهم في تحقيق أهدافها المعلنة حينا والخفية في أغلب الأحيان منذ أن صار الاستشراق رسميا.

ولعل التنوع في أهداف الاستشراق راجع إلى أن حركة الاستشراق وإن كانت محاضنها الأولى تكاد تكون دينية – حيث نشأت على أيدي الرهبان – إلا أنها خضعت لظروف وملابسات أخرى متعددة، فكانت أهدافها دينية تبشيرية مرة، وعلمية مجردة مرة، ومصلحية شخصية مرة، وخدمة استعمارية مرة أخرى.

---

[8] راجع المؤتمر الدولي: المستشرقون والدراسات العربية والإسلامية – رابطة الجامعات الإسلامية في الفترة من ٤-٦ مارس ٢٠٠٦م ص ٤٥٩

أولا: الأهداف الدينية:

إذ نجد أن الهدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق ودعم الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا، وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخه.

وعلى هذا فقد كان السبب الرئيس المباشر الذي دعا الأوروبيين إلى الاستشراق هو سبب ديني في الدرجة الأولى، فقد تركت الحروب الصليبية في نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرَّة عميقة.

وجاءت حركة الإصلاح الديني المسيحي، فشعر المسيحيون – بروتستانت وكاثوليك – بحاجة ملحة لإعادة النظر في شرح كتبهم الدينية ومحاولة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التي تمخضت عنها حركة الإصلاح، ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالإسلامية؛ لأن الأخيرة كانت ضرورة لفهم الأولى، وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أديانا ولغات وثقافات غير الإسلام وغير العبرية.

ومما يؤكد ما قررناه هنا أن بدايات حركة الاستشراق ظهرت على يد بعض القساوسة والرهبان الذين قاموا بجهود فردية في دراسة الإسلام خاصة، ولغته العربية وآدابها، ثم دعمت هذه الجهود وعُزِّزت بواسطة الكنائس الغربية والبابوية في روما بوجه خاص. وانطلقت بواكير العمل الاستشراقي في ظل كم هائل من الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين ورثة الغرب المسيحي عن أجيال سابقة، وفي ظل الرعب والخوف الغربي من المدِّ الإسلامي الذي دعمته الفتوحات الإسلامية وبلغ قمته– مرحليا – بعد اندحار – الغرب في الحروب الصليبية (١٠٩٥ – ١٢٩١م) وهنا أصبح الهدف الديني للاستشراق له ما يبرره.

ومن هنا فقد تنوعت الدراسات الإسلامية عند المستشرقين وتعددت اهتماماتهم بالإسلام وحضارته، ومعرفة أسرار هذه العقيدة والتشكيك في عظمتها، و ليسلبوا المسلم سر قوتها ليصبح بعد ذلك سهل التناول في أيديهم، يشكلون عقيدته حسب أهوائهم الصليبية، وحسب مكرهم السياسي والمذهبي، ولقد أفصح بعضهم عن هذا الهدف في بعض المؤتمرات بقوله: لا نريد أن نرسل إلى الشرق جنودا مسلحين، وإنما نريد لهم رسلا مبشرين بالنصرانية.

وهذا يعني أن هناك تخطيطا استشراقيا مستمرا يهدف إلى صياغة إسلام جديد يفتقد ركائزه الثابتة، ويضمن الحفاظ على ضياع المسلمين وتخلفهم الحضاري.

وهذا هو الهدف الاستشراقي الثابت وهو ما يجب أن تقف الدعوة الإسلامية ضده بكل ثبات وصمود، لكي تحافظ على الإسلام القرآني الذي أنزله الله تعالى، ولكي تعيد إلى

معالمه الثابتة الواضحة، البشر التائهين ممن ينتسبون إلى الإسلام وهم يجلهوا حقيقته، أو ممن ينتمون إلى أديان ومذاهب أخرى.

ويمكننا تلخيص ما سبق – فيما يتعلق بالهدف الديني – بالقول على لسان أستاذنا الدكتور زقزوق بأن الهدف الديني للاستشراق كان يسير منذ البداية في اتجاهات ثلاثة تعمل معا جنبا إلى جنب.

تتمثل هذه الاتجاهات فيما يأتي:

١– محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه، وإبرازها والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية، والانتقاص من قيمه والحط من قدر نبيه.. إلخ.

٢– حماية النصارى من خطره بحجب حقائقه عنهم، واطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين.

٣– التبشير وتنصير المسلمين وقد كان قرار فيينا الكنسي في ١٣١٢م، وقرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج بعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون، وتأسيس مجلة العالم الإسلامي عام ١٩١١م عن طريق "زويمر" رئيس المبشرين في الشرق الأوسط_ كانت بعض هذه الشواهد الظاهرة في اتجاه خدمة الهدف الديني والعمل من أجله في محيط الاستشراق.

ثانيا: **الأهداف السياسية والاستعمارية**:

لا تنفصل الأهداف الاستعمارية للاستشراق عن الأهداف الدينية كثيرا حيث زَّكت الأخيرة روح العداء في قلوب الغربيين تجاه الإسلام وأهله، حتى سيطر على القوم هناك شعور قوي بضرورة محاربة الأمة الإسلامية، لا عن طريق التنصير فحسب بل عن طريق الحروب العسكرية واحتلال البلاد الإسلامية، إلى جانب الحرب الثقافية المعلنة أيضا.

واستعدادا لذلك كان لابد من تجول طلائع الغرب في البلاد التي يجب قهرها واحتلالها وأن تكون هذه الطلائع من الذين تعلموا اللغة العربية وغيرها من لغات الشرق (المستشرقين) لكي يستطيعوا التحدث إلى الشعوب والبحث في الآثار، والتعرف على الأفكار، و القيام بالدعايات، وإثارة المنازعات، وإشعال الخلافات حتى تقع البلاد فريسة بين مخالب الاستعمار.

وإذا كان للساسة الغربيين فشل كبير في التنظير لهذه الأهداف السياسية، ورسم الخطط، وتعبئة الشعور الغربي لتأييدها ودعمها، وتكريس الإمكانات المادية والعلمية والمعنوية لخدمة هذه الأهداف، فإن الاستشراق قد اضطلع بهمة أساسية في هذا المجال، من حيث قدم الشرق إلى هؤلاء الساسة الدراسات والبحوث الشرقية في مجال التاريخ والنظم

السياسية والاقتصاديات الشرقية، والاجتماع واللغة والدين والعلم والفن والأدب، مما اعتبره مادة أساسية صالحة لأن يقوم عليها هذا التنظير.

ومن هنا كان هذا الوفاق تاما بين الاستشراق والاستعمار، حيث ساعد أحدهما الآخر مساعدة فعالة.

وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين.

وبعد حركة التحرير التي سادت شعوب المنطقة العربية، حرص الاستعمار على أن يكون له بين هذه الشعوب من يتولى تنفيذ مخططه والقيام على شؤون مصالحه، فعين في سفاراته وقنصلياته مستشارين لهم من ذوي الخبرة والمعرفة بالشرق وعلومه، وكان المستشرقون من أهم العناصر التي قامت بهذه المهمة، وكان نشاطهم السياسي ملحوظا في جميع البلاد التي عملوا بها.

ثالثا: الأهداف العلمية:

يعتبر العالم العربي كنزا حضاريا لا نظير له في بقاع العالم الأخرى، ففيه شُيِّدت حضارات وثقافات، ونشأت لغات وفلسفات وولدت علوم وفنون، ونزلت شرائع وأديان، لذا فقد كانت الدوافع العلمية ذات شأن عظيم في حركة الاستشراق خصوصا في توجهها نحو الشرق العربي والإسلامي، من حيث تميز هذا الشرق عن العوالم الشرقية الأخرى بخصوصية وتفرد في حضارته وثقافته، إلى جانب قربه الشديد من أوروبا، وعلاقتها المتوترة به فيما قبل الحروب الصليبية وأثناءها وفيما بعدها، وكونه بحضارته وعلومه وديانته يمثل خطرا قائما أو محتملا يهدد الغرب.

من هنا أيقن الغرب أنه لابد له أولا– إذا أراد النهوض – أن يدرس لغات الشرق وآدابها وحضارتها، خصوصا حضارة الإسلام وما حققه هذا الدين ورجاله من أهداف سياسية واجتماعية وأخلاقية وثقافية، فأقبل المستشرقون على هذه الدراسات بنهم، وانطلق كثير منهم إلى آفاق بَنَّاءة استفاد منها الشرق والغرب على حد سواء، ومن الجلي أن البحث على هذه الدراسات في أول الأمر كان دينيا وحربيا في القرون الوسطى، ثم تحول بعد ذلك إلى أغراض علمية هدفها كشف ما تكنه العلوم و الفنون الشرقية من كنوز ثمينة.

ومن هنا نؤكد على أن الاستشراق ليس شرا كله، كما يعتقد البعض ممن ترسبت في نفوسهم الكراهية للغرب الاستعماري، حتى أغلقوا وأيقنوا أن كل ما يهب من الغرب لا يمكن إلا أن يكون رياح المؤامرات والدس والفتن والكيد للإسلام والمسلمين، وفي هذا ظلم كبير لبعض المستشرقين ولأنفسنا أيضا؛ لأننا بهذا الموقف نحرم ثقافتنا الإسلامية من

ثمار عقول لا يحركها إلا حبها للحقيقة، ونقيم حاجزا بين أنفسنا وبين علماء ينفقون سنوات عمرهم في محاولة الاقتراب منَّا واستيعاب ثقافتنا وفهمها.[9]

لذلك ينبغي أن نعترف كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوي بكل وضوح وصراحة: أن عددا من المستشرقين كرسوا حياتهم وطاقاتهم لدراسة العلوم الإسلامية، وتبنوا موضوع الشرقيات والإسلاميات، دون تأثير عوامل سياسية واقتصادية أو دينية، بل لمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم، حتى بذلوا فيه جهودا ضخمة، ويكون من المكابرة والتقصير ألا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها.

خطة المستشرقين في الهجوم على الإسلام وآثارها المدمرة:

لقد دأب المستشرقون على خطة مدروسة يلحون بها على فكر الطلائع المثقفة من أبناء المسلمين، وخاصة المفكرين والأدباء ، وأصحاب الدراسات القانونية في نمطها الأوروبي وأمثالهم.

وكانت هذه الخطة متعددة الوجوه والأبعاد، تعتمد على إلقاء الشك والحيرة في نفس المثقف المسلم أولا، وتستمر ثانيا على نقد جوانب معينة من الإسلام في إلحاح مريب، حتى تثبت في الأذهان مفاهيم مشوهة، ثم تسرب إلى النفوس الفارغة – من غير وعي منها في الغالب – تفسيرات وتخريجات جديدة لأحكام الإسلام تلتوي بها عن حقيقتها ومقاصدها تماما.

ومن أمثلة ذلك: إلحاحهم على نقد مبدأ تعدد الزوجات عامة، وزوجات النبي خاصة، وتجريح التشريع الإسلامي في هذا الشأن، وكذلك نقدهم الدائب للفكرة التي اخترعوها وجسموها وألصقوها بالإسلام، وهي فكرة انتشاره بالسيف، وكذلك إلحاحهم على اتهام الإسلام بالجمود والرجعية، وأنه هو العائق لانطلاق المسلمين وتقدمهم، ثم المحاولة الدائبة لإقناع المسلمين "بعلمانية" الدولة ووجوب فصل الدين عنها حتى يتقدموا ماديا وحضاريا كما فعلت أوروبا.

من آثار الغزو الاستشراقي:

قد أثمرت هذه المحاولات الخبيثة بكثرة الإلحاح وتنوع وسائلها، انقلابا فكريا في مفاهيم هذه الطلائع المثقفة، والتي كانت تؤول قيادة أمتها فكريا وسياسيا، واجتماعيا وقانونيا.. إلخ، فموقف بعضهم حينئذ حائرا متشككا فغي دينه العظيم، وبذلك عزل هؤلاء عن المعركة الفكرية الضارية، وأمكن شل إرادتهم من أول الطريق فلم يستطعوا الدفاع عن مآثرهم الخالدة.

---

[9] راجع المرجع السابق

ودخل كثير منهم في التيار، فانقلبوا يهاجمون دينهم ويسخرون منه، ووقف آخرون موقف الخجل من دينهم وتاريخهم، أو محاولين الدفاع عنه عصبية وحمية لا عن اقتناع بتفرده في السمو والعظمة.

وكان من أخبث آثار هذا الهجوم الفكري هو قيام مدرسة فكرية جديدة بين المسلمين، ترمي إلى تقريب الشقة بين تعاليم الإسلام، وبين ما جاءت به حضارة الغرب من أفكار ونتائج ونظريات في ميادين الحياة.

وكان عماد هذا العمل هو تفسير الإسلام تفسيرا عصريا، يلائم الفكر السائد، ومحاولة إيجاد نقط التقاء بين الخطين على تباينهما، أو على الأقل تباعدهما.

ومن هنا أيضا رأينا أعجب شيء في تاريخ المسلمين، وواحد ممن ينتسب للإسلام ويتسمى باسم "العلماء" ويتخرج من أعظم معاهد الإسلام العلمية، يقوم على رؤوس الأشهاد بكتاب يجرد فيه الإسلام من جوانب الحكم والتنفيذ، ويرده إلى مفهوم أوروبي المولد والمنشأ[10] وينتهي به إلى معنى ضيق محدود، فيدعي أنه "رسالة لا حكم، ودين لا دولة) (١١)وأغرب من هذا أن يستدل بنصوص القرآن الكريم، فيحرف الكلم فيها عن مواضعه، ويتعسف تأويلها ويأتي بما لم يقله أحد قبله(١٢).

ثالثا : -الإعلام الغربي

يقع الإنسان في العصر الحالي، أسير وسائل الإعلام الطاغية كالراديو والتلفزيون أو وكالات الأنباء أو الأفلام أو الشرائح المصورة والنقل بواسطة الدش أو الإنترنت ، التي تطورت إلى أن اخترقت حياة الإنسان في مضجعه ومعيشته، من خلال البث المباشر والأقمار الصناعية فتنامي دور الإعلام في تكوين أفكار الناس، وتوجيه حياتهم وتشكيل عقائدهم والسيطرة على أفكارهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ بل وتكوين ثقافتهم والهيمنة على هويتهم والتأثير على أخلاقهم بما يبث من خلال وسائله المتعددة دون أن نستعد لمواجهتها مما أثر على تقاليدنا، وحقق السيطرة الغربية الإعلامية أمام إعلام عاجز عن المواجهة والمقاومة والتصدي له لضعف إمكانيتنا تكنولوجيا وبشريا وقد أصبحنا نعتمد على الغرب في نقل المعلومات بين أجزاء وطننا العربي الإسلامي دون

[10] - راجع : في هذا (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)جـ٢ صـ ٧٤ حيث يذكر أمثلة تفصيلية لاعتماد ((على عبد الرازق) حتى فيما يتعلق بالإسلام في كتب المستشرقين
، وراجع كتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي حيث يذكر تأثره بالفكر الغربي (فصل دين لا دولة))

[11] - هذا عنوان الباب الثالث من كتاب : "الإسلام وأصول الحكم " ، ص ٦٤ وما بعدها .

[12] - راجع في بيان هذا والرد عليه كتاب " المنهاج القرآني في التشريع " ص ٢٩٥ وما بعدها وأيضا كتاب : "المعاملات في الإسلام"ص٤٩-٥٧ .

تمحيص أو روية، ونتعرف على المعلومات الخاصة ببعضنا من خلال الوسيط الغربي أو الأمريكي ملونة برؤيتهم وتدخلت في تكوين قوانيننا في الرؤى.

ونقول إن عالم اليوم محملا بثورة تكنولوجية عاصفة أصبح العالم بها قرية صغيرة ينتقل فيها الفرد بين القارات في ثوان، وتغزوه الثقافة الغربية في أي مكان كان، وتؤثر على قيمه وسلوكياته، وانتقلت المدرسة إلى المنازل لتشكل عقول أطفالنا ويجرى غسيل لعقول الكبار، وأصبح المدرس الأول في تعليم الجريمة وأساليب الانحراف وتشكيل الوجدان ونشر العقائد والمثل والقدوة من البث الغربي أو الأمريكي الذي يعمل على غرس أنماط حياتهم وإشاعته بيننا ،وتخدير الشعوب ونقلهم إلى سوق اللهو والتسلية والفساد والعري والمجون، قيم تمثل الفراغ الروحي، واستغراقه في المادية يمجد الرذيلة.

وقد استطاع هذا الإعلام في أحيان كثيرة إذابة الشخصية الإسلامية ومسخ هويتنا وخصائصنا الذاتية، وخضعنا للغرب تحت تأثير الاستشراق والتغريب بغطاء تبشيري تنصيري، ويتلاعب بنا الغرب والأمريكان والصهاينة الذين يمارسون توجيه وسائل الإعلام العالمية بما فيها وكالات الأنباء الكبرى .

وهذا الاختراق ليس بإمكان أية دولة إسلامية وحدها حتى الآن مواجهته و مواجهة هذا التدفق الإعلامي الغازي وقدراته وإمكانياته واتجاهاته المشبوهة، و زرعه بذور الفتنة الطائفية والعرقية والمذهبية لتفرقتنا شيعا.

فهذه السيطرة الإعلامية لوكالات أنباء الدول الكبرى والأقمار الصناعية والإذاعات الموجهة والصحف الكبرى والكتب الغربية، وجهود الإرساليات التبشيرية كلها، كلها تسفر عن حملة عداء سافرة ضد الدين الإسلامي والرسول ﷺ، والدعوة إلى التنصير وما تلقاه من دعم مالي وإمكانيات لتبليغ رسالتها المخططة في ظل ثورة الاتصالات ونقل المعلومات.

فإننا نواجه تحديات كبرى تحتاج إلى تجميع الجهود والإمكانيات لمواجهة العالم الغربي والسيطرة الصهيونية التي تتحكم في إعلامهم لتحقيق أهدافها اللعينة ، في ميدان خال من مقاومة جادة صحيحة.

ومن هنا يجب على المفكرين الإسلاميين إبراز هذه الحقائق العلمية حتى لا نعيش عالة حتى الآن على الثقافية الغربية؛ لأن ذلك إهمال، فالإسلام لا يعادى الغرب ولا حضارته، وعلى المفكرين المسلمين إبراز صورة الإسلام الحقيقية؛ دين الفطرة والحرية وأن يتصدى للفتوى علماء وهيئات ذات مصداقية وإبعاد أشباه الفقهاء مع الاستعانة

بالوسائل التكنولوجية وتجنيدها لإبراز الإسلام الحقيقي، وحسن استعماله وتوجيهه في صد حملات الغرب الإعلامية المتواصلة على الإسلام.

ومازالت جهود المسلمين في هذا المجال متواضعة؛ بل بدائية، وأن في سلوك بعض المسلمين مجالا لتشويه صورة الإسلام من خلال سلوك أهله، والذين يخلط الغرب عامدا بينهم وبين الدين الإسلامي مع وضوح الفارق بين الإسلام والمسلمين.

وعن وسائل الإعلام الإسلامية فإن لها دور مهم لنشر الثقافة الإنسانية ذات المرجعية الإسلامية، مثل الحرية الكاملة لأهل الأديان الأخرى والتسامح ومحاربة التعصب والتعاون في ظل الحكم الإسلامي بين المسلم والمسيحي واليهودي والتربية الإسلامية والأساليب التي استعملها الإسلام لنزع الأحقاد الدينية، وقد ورد في كتاب الله (القرآن) وفي سنة رسول الله ﷺ العديد من الآيات والأحاديث وردت في مواضعها في هذا الكتاب لتعزز ما نقول. فنحن في حاجة لوضع استراتيجية لمواجهة الحملات الإعلامية الغربية الأمريكية الصهيوينة ثالوث استعمرنا ثقافيا، وآن الأوان أن نصد هذا الغزو ولدينا من الدور الحضارية ما يساعد على بناء الحضارة الإنسانية وإعادة القيم الروحانية المستمدة من ديننا بعد أن تشبعت القيم الحالية بالممارسات المادية، فديننا وسطى يدعو للرحمة والتسامح والحرية المسئولة بعيدا عن العنف والإرهاب[١٣].

وقد رسخ الوضع العالمي والنظام الإعلامي بقاء نوع رؤى من الاستعمار السياسي والثقافي والاقتصادي عن طريق قنوات الاتصال والإعلام نراه يركز على أحداث تافهة أو بسيطة في الدول النامية ويضخمها ويكبرها ويهولها، ويصوغها بطرق تخدم الصورة التي يريد تقديمها عن هذه الدول النامية، وفي بعض الأحيان يلزمون الصحف عن أحداث معينة؛ لأنها لا تخدم مصالحهم، وهكذا لا تغطى أخبار الدول إلا بالقدر الذي يخدم مصالح هذه الدول الكبرى ومجتمعاتها[١٤] .

وفي هذا السياق فإن وسائل الإعلام لاتنضبط بقواعد النزاهة العلمية بالنسبة للإسلام والمسلمين؛ لأن تصورات الغرب عن الإسلام وحضارته هى صورة متشابهة في المجتمع الغربي بسبب ما خلفته المدونات التاريخية والنقل الزائف والتصوير السيئ بدءاً من كتبهم المدرسية وطروحاتهم في وسائل الإعلام وإغفال انجازات الحضارة الإسلامية وطمسها.

---

[13] - راجع: الإسلام والغزو الفكري – محمد علوان – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠، دار الشهاب للتوزيع والنشر.

[14] - الإعلام الإسلامي في عصر الفضاء أ.د محمد عبده يماني، بحث مقدم لندوة الإعلام الإسلامي في الفترة من ٣-٥ مايو ١٩٩٢م صـ ٢٢٨نظمتها مؤسسة إقراء الخيرية بالتعاون مع مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي – جامعة الأزهر.

ضرورة مواجهة الإعلام الغربي والصهيوني:

علينا أن نواجههم بأن يبرز إعلامنا آثر الإسلام في أوروبا، وأن أول كلية طب أوروبية بمدينة باليرمو بإيطاليا في القرن الحادي عشر الميلادي، وكان المنهج الدراسي بهذه الكلية يشتمل إلى حد كبير على الكتب العربية التي ترجمت إلى اللاتيني، وقد كتبت دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٨٤م في معرض ذكرها لهذا التطور، إن القرن الثاني عشر شهد برنامجا بطوليا لترجمة الأعمال العلمية من العربية إلى اللاتينية. وإن كتاب القانون لابن سينا ظل يدرس في كليات الطب في أوروبا حتى القرن الثامن عشر.

ومن هنا نستخلص من هذا البحث أن أعداء الإسلام يقدرون الإسلام حق قدره ويعرفون مدى قوته، حيث إننا نجد في كل مراحل التاريخ الإسلامي كان الإسلام هو سر نصر المسلمين ما إن تمسكوا به، وحينما تركوه كانت لهم الهزيمة.

ومن هنا يجب على المسلمين أن ينتبهوا لهذا الخطر القادم وأن يقفوا له وأن يتصدوا له بالرجوع إلى عقيدتهم التي بها يرفعون إلى أعلى مراتب التقدم والرقي.

خاتمة:

قضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تقابل دعوات الإصلاح بالرفض والمحاربة، منذ أن وجد الإنسان على الأرض؛ لذا وقف اليهود ضد الدعوة الإسلامية، منذ أن بدأ الرسول ﷺ بنشر دعوته، ليقيم الدولة التى تحمى الدعوة وتساعد على نشرها في المدينة، أخذوا يدبرون المكائد ضده، ويحاولون التعدى عليه بصور عديدة، تراوحت بين محاولات دس السم أو قتله بإلقاء حجر عليه، ثم محاولة القضاء على الدعوة بشكل كامل مع غزوة الأحزاب، ولم تنته محاولات اليهود في العصر الحاضر عن الكيد للإسلام ووقف تقدمه، ومحاربة دعوته؛ بل وصل الأمر إلى اغتصاب أرض المسلمين، والاعتداء عليهم فيها وفي كل أرض فلسطين، فضلا عن تدبير المكائد ضد المسلمين في كل مكان.

ولاشك أن الصليبية هى دعوة أخرى تتفق مع الدعوة الصهيونية في الكيد لدعوة الإسلام، وتحاول وقف تقدم الدعوة في بلادها التى انتشرت بشكل كبير فيها في الوقت الحاضر، وكلما صدرت إحصائيات عن الدعوة إلى الإسلام وازدياد عدد المسلمين في أوروبا، كلما وجدنا المد العدائي ينبعث من مختلف مناطق هذه الدول، ولعل من أشد ما واجهته الدعوة حديثا ما جرى بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر من اتهامات للمسلمين بتصدير الإرهاب ومحاولات تقويض أسس الحضارة الغربية.

والواقع أن هذا البحث حاول أن يتناول الدعوة الصهيونية والصليبية كمعوقين للإسلام وكعقبات تواجه الدعوة وتحاول أن توقف تقدمها.

وقد حاولنا في هذه الأوراق أن نبحث عن الأسباب المؤدية لذلك، كما حاولنا أن نبحث الوسائل القديمة والحديثة للوقوف ضد الإسلام ودعوته، و هل هى الحقد الدفين على دين ينتشر سريعا أم هو صراع المصالح ومحاولات السيطرة على موارد الثروة في بلاد المسلمين، أو السببين معا، كما حاولنا أن نقدم الحل وهو ضرورة التيقظ واجتذاب عناصر القوة في الموقف الإسلامي والدفع بها قدما، لبلورة القوة وتفعيلها في حياة المسلمين .

إن المسلمين يملكون الكثير من عناصر القوة التى تحتاج إلى التفعيل في الوقت الراهن، وهم يحتاجون إلى قيادات فاعلة تتفهم العصر وروحه، وتقدر الحوار مع الآخر والتحدث إليه بلغة يفهمها، عسى أن نكون قد ألقينا الضوء على هذه المشكلات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين